ظلال الغد
حوارات مستقبلية
د. محمد محمود أسعد

ظلال الغـد

| | |
|---|---|
| اسم الكتاب: | ظلال الغـد |
| اسم الكاتب: | د. محمد محمود أسعد |
| المراجعة اللغوية: | المكتبة العربية |
| تصميم الغلاف: | المكتبة العربية |
| الطبعة: | الأولى |
| رقم الإيداع: | 7422 / 2026 |
| الترقيم الدولي: | 978-977-9658-99-0 |

| | |
|---|---|
| Gmail | almaktaba79@gmail.com |
| facebook | Facebook.com/almaktaba79 |
| | 01030365801 – 01014977934 |



جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

# ظلال الغد

## (حوارات مستقبلية)

د. محمد محمود أسعد

للنشر والتوزيع
Arabic Library

# إضاءة

لم يعد المستقبل بعيدًا عنا كما كان، صار يطلّ علينا من خلف الشاشات كأنه يتشكل أمامنا الآن، يتسرّب إلى تفاصيل أيامنا بجرأة، حتى غدت مفاجأته تلح علينا بالتفكير بها والتخطيط لها قبل أن تحدث لأنها باتت أسرع مما نتصوّر.

المستقبل ليس مجرد أيام نعيشها إن كتب الله لنا فيها الحياة، بل هو لقاء بين عقول عظيمة تبتكر وعقول ناضجة تستفيد من عالم راحت تُشكله التقنيات والعلوم الحديثة من جديد.

كتاب "ظلال الغد" هو عبارة عن حوارات قصصية فيها شيء من التوقعات المستقبلية، هو أشبه بمرايا وإشارات صغيرة لزمن يتغيّر أمام أعيننا شئنا أم أبينا. زمنٌ تتقاطع فيه الخوارزميات مع العاطفة، وتتشابك فيه الأسلاك مع الأحلام.

في هذا الكتاب، يقترب المستقبل منا أكثر، يُحدّق فينا كما نُحدّق فيه، يدعونا بود لأن نكون جزءا من رحلته الأكثر ذكاءً واستدامة.

حوارات "ظلال الغد" ليست لتخويف القارئ من القادم، ولا لتقديس المستقبل، بل هي حكايات عن الإنسان كما هو، وكيف يجب أن يتكيف مع القادم بوعي وإدراك.

حوارات "ظلال الغد" هي دعوة للتفكير العلمي بالغد والنظر بعين العقل والبرهان إلى ما يحمله إلينا من اختراعات بوجهيها.. الوجه المضيء الذي يحمل معه التفاؤل والنفع، والوجه الآخر الذي يتطلب منا الوعي والحذر لِما في طياته من سلبيات ومخاطر.

المؤلف

آذار- مارس 2026. العين، إ.ع.م

# اقرأني مرتين

بينما كنتُ أبحث في حي الحلبوني الدمشقي عن كتاب قديم لم أجده في غربتي، بدت لي إنارة مكتبات الحي الشهيرة ولمعان لوحاتها قد خف، ووهج حروفها كمن يبتسم على استحياء.

رغم تعدد المكتبات في الحي، زرت معظمها، أصافح رفوفها بعينيّ، أستنشق ما تبقّى من رائحة حبر كتبها، فلا أجد سوى فراغ مخيف، وماض ينام على رفوف.

عند زاوية الشارع "السوكة"[1]، وقبل أن أسأم من بحثي وأترك المكان، رأيت أحد المارين على الطرف الآخر من الشارع، بدا لي وكأنني أعرفه، كأنه أحد أصدقائي القدماء أيام الخدمة الإلزامية في المتحف الحربي المجاور، صُحت عليه بدون تردد:

- أمير.. أمير

التفتَّ إليّ فإذا به واتجه نحوي، يا لمحاسن الصدف، ثلاثون عامًا مضت تفككت في لحظة، وصارت صفرًا في مصافحتنا وعناقنا الطويل. هو نفسه رفيق المناوبة في المتحف الحربي وصرح الجندي المجهول، ضحكته لم تتغيّر وإن تغيّر وجهه قليلاً وشاب فوديه كما شابت أجزاء كثيرة من المدينة. أخذ يربّت على كتفي كأنما يطمئنني أن الزمن لم يخطئ العنوان.

---

1 السوكة باللهجة الشامية تعني الزاوية أو مفرق الطريق

أخبرته عن نفسي وعن قصدي هنا، فقال وهو يشير إلى مكتبة قريبة:

- تعال معي، أنا أعرف صاحب هذه المكتبة، لن يُضيّع لنا الطريق

دخلنا إلى مكتبة صاحبه. كانت غنية في مساحتها، فقيرة جدًا في محتوياتها، كأنها شاخت كما شاخت الأشجار أمامها.

داخل باب المكتبة صادفتنا عربات صغيرة ملوّنة، ودفاتر بأغلفة زاهية، وأقلام بأغطية تشبه الحلوى. رفعتُ نظري إلى الرفوف التي كنت أعهدها من قبل مليئة بصفوف الكتب، فلم أجد عليها ذلك التموّج الداكن من الكتب الفاخرة؛ للأسف فقد شغل مكان الكتب ألعابٌ وقرطاسية ومكعبات. أحسستُ أنني دخلتُ إلى ذاكرةٍ استبدلت صورها العائلية بإعلانات.

رحّب بنا صاحب المكتبة بفتور، كان رجل سبعيني، حالته الصحية بدت لي لا تسر كمكتبته. كانت ملامحه هادئة كدفتر حساب قديم، وابتسامته معلّقة بين «تفضل» و«سامحنا فطلبك غير موجود». سألته:

- ماذا جرى يا عم؟ أين ذهبت الكتب؟

أجاب وهو يشيح بنظره نحو الرفوف التي كانت يومًا ما تعجّ بأمهات الكتب والروايات:

- هي التكنولوجيا يا ولدي... وحال الناس

جلستُ أمامه على كرسي خشبي قديم صقلته أكواع القرّاء لعقود. ذكّرتُه بأوائل التسعينيات، حين كنتُ أخدم دليلاً سياحيًا في المتحف الحربي القريب من هنا مع صديقي أمير. كيف كنا نمرّ من هنا بعد انتهاء الدوام، نصطفّ عند أبواب المكتبات المكتظة، يدفعنا الشوق إلى العنوان قبل أن نعرف الكاتب. كان

معظم أصحاب المكتبات متعاونين معنا نحن الشباب العاملين في المتحف، نستعير منهم الروايات بدون حرج، أيامها كان صخب الأوراق أشبه بسوق عتيق، صفحات تُقلّب كالعملة، وعناوين تُباع وتُشترى بالدهشة.

هزّ رأسه وقال:

- سقى الله تلك الأيام. كانت المكتبة بيتي أقضي فيها معظم أوقاتي بدون كلل أو ملل، لكن كما تراها اليوم صارت متجرًا لكل شيء إلا الكتب والشغف.

قلت:

- فعلا اصبح حال المكتبات لا يسر إلا عدو. أشعر أنّ الكتاب صار عبئًا على المكان.

تنحنح الرجل العجوز وقال:

- الزبون تغيّر. معظم من يشترون اليوم، يتوزعون بين من يريد دفترًا لابنه ولعبةً لابنته، وبين من يسألني عن أرخص طبعة إن خطر عنوان كتاب بباله ثم ينصرف بدون أن يشتريه. صدقني، الناشر نفسه صار يُجمّل الغلاف أكثر من الكاتب الذي يجمّل اللغة لإغراء قارئ لا يستجيب لأي مغريات.

بينما كان يتحدث العجوز عن حال مكتبته والكتب، تذكرت زيارتي لمعرض القاهرة الدولي للكتاب 52، فأخبرته بذلك وقلت:

- صدقت يا عم، يبدو أن الحال عام، في العام قبل الماضي زرت معرضًا كبيرًا للكتاب في مصر. أجنحته كانت مصطفّة كالكتيبة، عناوين المنشورات لا تنتهي، زحام بشري يلمع كالمرآة، لكن في المقابل الأسعار كانت نار. الكل كان ينتظرالخصومات في الأيام الأخيرة من المعرض.

ردّ العجوز:

- أعرف أن المشكلة هنا أو هناك ليست في عدد الكتب فهي أكثر من قبل وأكثر من زوار المعارض بكثير، لكنّ النوع تغيّر، وحب القراءة شبه تلاشى.

قلت:

- صحيح، للأسف صارت معظم الكتب إلكترونية. وكذلك الصحف والمجلات، صار معظم القراء يجرّون أصابعهم على الشاشة، وقلة قليلة منهم يقلبون الصفحات بأطراف أصابعهم. كأننا انقسمنا نحن القراء بين رائحتين.. رائحة السليولوز[2] ورائحة الزجاج، لكن يبدو الغلبة للأرخص والأسرع.

تبسم الرجل العجوز وسكت. سكوته كان أطول من قبل، ثم نظر إليّ فجأة وقال:

- لن يختفي الكتاب الورقي كما يتوقع المتشائمون وأعداء الكِتاب، صحيح أن بريقه خف وتحوّل من أداة للمعرفة إلى تجربة، ومن منتج متكرر إلى قطعة قيّمة. لكنه سيبقى لمحبّيه الحقيقيين، وللحظات الصفاء، وللأرفف الجميلة التي تزين البيوت والمكاتب.

توقف قليلاً وكأن الحديث عن معاناة الكِتاب أرهقه ثم تابع بالقول:

- صحيح أن الكتب ستفقد دورها كوسيلة أساسية للمعلومة، لكنها ستبقى قوية كرمز للمتعة المعرفية، والهوية، والاقتناء.

سألته على الفور:

---

2 السليولوز(cellulose) مادة طبيعية تُعد المكون الأساسي لجدران الخلايا النباتية، يُستخدم في صناعة الورق والكرتون، والمنسوجات والصناعات الغذائية والدوائية.

- ماذا تتوقع على المدى القريب؟

أجابني، وعيناه تحدقان بأرفف مكتبته:

- كما ترى، القراءة الرقمية ستستمر في التوسع عبر الهواتف والقارئات الإلكترونية، خصوصًا في المجالات العلمية والتعليمية والكتب السريعة الاستهلاك. أما الكتب الورقية فستنتقل من كونها منتجًا وظيفيًا إلى منتج تجريبي وتجميلي، سيكون هنالك طبعات فاخرة، وتصاميم فنية، وكتب تُهدى وتُعرض، لا لتُقرأ فقط.

سألته باستغراب:

- ماذا تعني بمنتج تحريبي؟!

فردّ بالقول:

- ستنتعش الطباعة عند الطلب بدل الطباعة بالجُملة، كطريقة مبتكرة تمزج بين الثقافة والتقنية، وحلقة وصل بين الناشرين والمؤلفين من جهة، وبين القراء من جهة أخرى للوصول إلى القراء في أي مكان وأي زمان. الأمر الذي يجعل الكتاب أكثر تخصيصًا وأقل هدرًا.

قاطعته بسؤال؟

- وماذا عن دور الذكاء الاصطناعي في كل ذلك؟

أجابني بتنهد وحسرة:

- الكتب المسموعة والذكاء الاصطناعي سيأخذان جزءًا كبيرًا من الاستهلاك اليومي بدلاً من القراءة الطويلة.

توقفت عن توجيه الأسئلة للعجوز حينما بدت عليه علامات التعب والشحوب، ثم مددتُ يدي إلى رفّ جانبيّ، لعلّي أصادف الكتاب الذي أفتّش عنه أو شبيها له. لم أجد العنوان الذي أبحث عنه، لكنني وجدتُ كتابا قديمًا متشحا بالغبار كأنه كان معروضا على أرصفة الشوارع لسنين، عليه ختمُ دار نشر شهيرة انقرض اسمها من السوق. فتحته، فسقطت منه ورقة رقيقة كُتب عليها بخط مائل: "اقرأني مرتين: مرة بقلبك، ومرة بصبرك". أعدت الورقة إلى مكانها كما تُعاد جمرة إلى موقد. وضعت الكتاب أمامي على الطاولة الجانبية على نية الاقتناء، بينما كان صاحب المكتبة العجوز ينظر إلى الباب وكأنه يراقب العالم من خلاله، لكنه فجأة تابع حديثه معي وقال:

- خلال فترة زمنية قصيرة، ستتحول معظم دور النشر إلى واجهات إلكترونية. الورق سيغدو تحفة على الرفوف، تُشترى الكتب الورقية للفخر أكثر مما تُشترى للقراءة. المكتبات الكبيرة ستبيع قرطاسية وألعابًا تعليمية، وستبقى زاوية صغيرة للكتب فيها مثلها مثل أي تطبيق بالهاتف قلما يُستخدم.

حين توقف عن الحديث قلت:

- صحيح، يبدو أن ذلك يطلّ علينا الآن، كأنه صار يتشكل أمامنا بسرعة. ماذا عن القاعات في المكتبات العامة والمراكز الثقافية؟

أجابني بدون تردد:

- ستبقى أرففها قائمة، لكنها خاوية إلا من بقايا مجلدات. أما المكتبات العامة ستتحول إلى مساحات ثقافية وفنية أكثر من كونها أماكن

لعرض الكتب. قاعاتها ستزدحم بأمسيات شعرية ومعارض فنية فيها جمهور قليل وكلمات أكثر مما تُسمع.

في حديث العجوز، تذكّرتُ نفسي أيام ما ذهبت إلى المعرض الكبيرفي القاهرة مشاركًا وزائرًا، كانت أجساد الناس تتحرّك كالنهر، عناوين تشعّ على الطاولات، ورق مصقول يلتقط الضوء مثل قميص جديد، ومع ذلك قليلون من كانوا يمدون أياديهم إلى جيوبهم لشراء الكتب. معظم الزوار كانوا يتفحصون المعروضات مثل فراشات تتبع الألوان انبهارا، لا شغفا بالرحيق.

قطع أمير سلسلة ذكرياتي بمعرض الكتاب ذاك حين أشار إلى زاوية مهملة قرب الأرض في مكتبة صاحبه. انحنيت قليلاً نحوها. كان هناك صفّ صغير من الكتب لا تشبه غيرها. أغلفتها باهتة، أطرافها مهترئة، أسماء كُتّابها كانوا يومًا فتيانًا في أذهاننا. مددتُ إصبعي إلى إحداها فخرج معي كتاب نحيل، عليه اسمٌ أحببته في شبابي. قلبتُ صفحاته، ففاحت منها رائحة تشبه ياسمين شاخ على شرفات البيوت الدمشقية. في هوامش الصفحات كانت هنالك خطوط حمراء، وتعليقات ليد مجهولة يبدو أنها ناقشت الكاتب كما يناقش الابنُ أباه. شعرتُ أن الكتاب كان ينظر إليّ ويقول: "خذني فلن تندم"

قلت للعجوز:

- سآخذ هذا أيضا

نظر إليّ بدهشة خفيفة، ثم قال:

- طُبع هذا الكتاب قبل أن تولد دور النشر الجديدة. ليس عليه خصم، لكنه يستحق ثمنه

دفعت له ثمن الكتابين. وضعهما في كيسٍ ورقيّ لا يحمل أي شعار للمكتبة. ناولني إيّاه كما تُسلَّم أمانةٌ في مجلس عزاء.

خرجت وصديقي إلى الشارع العام حاملاً هماً بوزن مكتبة كبيرة وعريقة وَجد فيها كل شيء إلا الكتب.

سألني أمير مبتسمًا:

- هل وجدت ما تريد؟

أجبته:

- وجدتُ شيئًا يشبهه.

سكتنا قليلاً. كانت الشمس تتكئ على واجهات المباني القديمة في حي الحلبوني كقارئ تعب من الضوء. في البعيد، كان بائعُ عربة متجوّل ينادي على دفاتر سميكة ومسطّرات بلاستيكية. ضحك أمير: ثم قال:

- العالم يمشي إلى حيث يجب أن يمشي.

قلت:

- نعم، لكن الكتب تعلّمت المشي قبلنا. كلّ ما في الأمر أنّها غيّرت الطريق لأننا غيرناه.

عند زاوية الشارع، التفتُّ إلى الواجهات المكتظّة بالقرطاسية. تخيّلتُ حالها بعد سنين قليلة.. شاشاتٌ صغيرة تعرض أغلفةً لا تُمَسّ، وطفل يجرّ أمّه إلى زاوية الألعاب، وشاعرٌ يقف في قاعة شبه فارغة يقرأ نصّه لربع جمهور موزعين بين ابتسامة مصطنعة وانشغال بهاتف. شعرتُ بوخزة في صدري، ثمّ برد لطيف في أطرافي حين تذكّرت الورقة التي وجدتها في الكتاب الأول "اقرأني

مرتين" قرأتُ الشارع بعينيّ مرة، وبالكتاب الذي في يدي مرةً أخرى. في القراءة الثانية، رأيتُ شيخًا يُعيد ترتيب رفّ صغير بإصرار، وصديقين قديمين يعثران على نقطة زمن مشتركة، ومدينةً تتنفس بصعوبة بين عهدين متناقضين.

عندما ودّعتُ صديقي أمير عند آخر الشارع. صافحني بقوّة وقال:

- لا تغب عني ثلاثين أخرى .

ابتسمت له. ثم أدخلت أصابعي في الكيس أتحسّس الكتابين، كأنني أطمئنّ على نبضهما في داخلي، كأن صوتٌ يصرخ: إن كان الكتاب الإلكتروني سيملأ الرفوف الافتراضية، فثمة كتابٌ واحدٌ على الأقل سيختبئ في زاويةٍ منخفضة ينتظر أن ينحني له أحدُ لالتقاطه. فما دام هناك مَن يبحث عن عنوان ومحتوى، فللورقِ عذرٌ مقنع كي يبقى.

*****

# ثورة النقل

لعطل طارئ في سيارتي الخاصة، وجدت نفسي مضطرًا للذهاب إلى دوامي في جامعة الإمارات العربية المتحدة يوميًا لمدة أسبوع بسيارات الأجرة (التاكسي أو الأوبر). رغم أن أجرة الذهاب والإياب كانت أعلى بكثير من استئجار سيارة بدون سائق من مكاتب استئجار السيارات المنتشرة في حي المربعة الذي أسكن فيه في مدينة العين الإماراتية، إلا أنني فضّلت أن أجعل هذه الرحلة اليومية فرصة لي للخروج عن روتين القيادة والزحام المروري، وأتعرف على حياة السائقين اليومية وخاصة أن أغلبهم إن لم يكن كلهم من جنسيات غير عربية..

معظم سائقي التاكسي هنا لا يجيدون لغة سوى لغتهم الأم.. الأوردو-مما حدّ من حواري معهم، لكن في حديثهم معي بدا لي أن القاسم المشترك بينهم كان الغلاء المعيشي هنا في الغربة، والحنين إلى وطنهم هناك.

أحدهم كان خان سائق سيارة الأوبر، باكستاني من مدينة كراتشي في الثلاثين من عمره، يحمل شهادة بكالوريوس في الكيمياء. جاء إلى الخليج بحثًا عن وظيفة في مجاله، كما وعده أقاربه، لكنه اكتشف بعد وصوله إلى هنا أن الواقع مختلف تمامًا عما أخبروه. خمسة شهور أمضاه بلا عمل، مع خمسة أشخاص شاركهم أكلهم وشربهم ومسكنهم في غرفة صغيرة تفوح منها رائحة العرق والرطوبة، أيقن فيها أن حياة الغربة أصعب مما كان يتصوّر.

أخبرني خان وهو يلتفت إلى الطريق:

- خوفًا من الانتظار الطويل، وخشية العودة بخسارة مضاعفة، استأجرت هذه السيارة لأكون سائقها الوحيد. نسيت أحلامي، لأن الواقع في واد، والأحلام في وادٍ آخر.

سألته إن كان سيواصل البحث عن وظيفة تُناسب مؤهلاته، فأجاب:

- بالتأكيد، لكن بشرط أن يكون الدخل أفضل من عملي الحالي

أخبرني أن ارتفاع أسعار البترول قد رفع أجور التنقل بسيارات الأجرة، بينما بقيت رواتب الوظيفة ثابتة منذ فترة طويلة .

ما أعجبني في خان بالإضافة لإصراره على العمل مهما كان رغم تخصصه العلمي الدقيق، اختلافه عن السائقين الآخرين الذين يمضغون النسوار[3]، ويشغّلون الأغاني بصوت عال دون اعتبار لمزاج الركاب.

خلال رحلتي اليومية مع خان ليومين متتالين، شرح لي بأسلوب الكيمائي المختص كيف تؤثر السرعة والتسارع على استهلاك وقود السيارة، وكيف تختلف تكلفة كل كيلومتر، وتأثير ذلك على أرباحه اليومية. جيث قال مبتسمًا:

- هذا الوضع لن يدوم طويلاً، فالأمور حتمًا ستتغير.

---

3 النسوار: أرخص وأخطر أنواع التبغ الذي لا يدخن بل يمضغ، وهو عبارة عن أوراق تبغ مجففة ممزوجة ببعض المواد الأخرى مثل الجبس أو الجير والرماد والمنكهات بهدف الجذب والإغراء. يأتي على شكل مسحوق أخضر اللون يباع في أكياس بلاستيكية شفافة أو على شكل معجون أخضر يضاف إليه الليمون. موطنه الأصلي دول شرق أسيا (أفغانستان) ثم انتشر للجوار والخليج وأوروبا.

سألته عن قصده بالتغيير، فأجاب بسرعة:

- وضع سيارات الأجرة. ووسائل النقل العامة في العالم لن يبقى هكذا

استفسرت أكثر فقال موضحًا:

- ارتفاع أسعار البترول رفع الأجرة وقلّل الطلب. أليس كذلك؟ لذلك أظن أن الحكومات وأصحاب السيارات سيبحثون عن حلول تجعل الأمور أسهل للسائق والراكب معًا. أحد هذه الحلول هو استبدال سيارات الأجرة ووسائل النقل العامة التي تعمل بالوقود (البنزين والمازوت) بسيارات كهربائية أو الهايبرد لتقليل التكلفة أولاً، وتقليل الانبعاثات ثانيًا.

ابتسمت وقلت:

- لكن سيأخذ هذا وقتًا طويلاً.

فردّ عليّ حازمًا:

- ليس بالضرورة. الأمر يعتمد على مستوى المعيشة والدخل في كل بلد. هنا في دول الخليج مثلاً قد يحدث ذلك خلال سنوات قليلة، أما في البلدان الأخرى فقد يتأخر، لكن هذا التغيير قادم لا محالة ولو على مراحل.

ثم أضاف:

- هذا التغيير ليس حاجة بل بات ضرورة تفرضه ثورة قادمة تشمل الوسائل والبنى التحتية والتقنية الخاصة بالنقل .

حين سألته عن تلك الثورة فأجاب:.

- ستشهد أنظمة النقل في المستقبل القريب تحولاً جذريًا يعتمد على الطاقة النظيفة والتقنيات الذكية. فالحافلات والقطارات ستصبح كهربائية أو هيدروجينية بالكامل، بينما تختفي المركبات العاملة بالوقود الأحفوري[4]. وستدار شبكات النقل عبر أنظمة مؤتمتة تعتمد على الذكاء الاصطناعي لتنظيم الحركة وتقليل الازدحام. ستنتشر القيادة الذاتية في الحافلات والقطارات. وسيتم دمج المترو والحافلات والدراجات وسيارات الأجرة في تطبيق واحد للحجز والدفع والتتبع، وسيتم الاستغناء عن التذاكر الورقية لصالح الدفع عبر الهاتف أو البصمة أو العين. كما ستستخدم البيانات للتنبؤ بحركة الركاب وتقديم خدمات مخصصة لكل مستخدم. كما سيزداد تواجد القطارات الفائقة السرعة Hyperloop لربط المدن خلال دقائق.

قاطعته وتساءلت مستغربًا:

- كل هذا ستحدثه ثورة النقل المرتقبة؟!

فأجابني مؤكدًا:

- وأكثر من ذلك، فسيارات الأجرة ستتحول إلى مركبات ذاتية القيادة.. كهربائية أو طائرة (Air Taxis) تُدار من مراكز تحكم مركزية لضمان المسارات الآمنة والفعالة. هذه ليست تنبؤات إنما بشائر بدأت تظهر ملامحها هنا في أبو

4 الوقود الأحفوري (Fossil Fuel): مصدر طاقة يتكون من بقايا كائنات تحولت بفعل الحرارة والضغط على مدى ملايين السنين إلى فحم، نفط، وغاز طبيعي. تُستخدم هذه الوقود لتوليد الطاقة لكنها غير متجددة وتسبب تلوثاً بيئياً.

ظبي ودبي، وفي بعض البلدان المتقدمة. باختصار شديد جدًا، ستصبح تجربة التنقل أكثر ذكاءً وشخصية، حيث تتعرف المركبة على الراكب وتضبط الإعدادات وفق تفضيلاته، بينما تُحصّل الأجرة تلقائيًا دون أي تفاعل يدوي.

لم أنكر إعجابي بوفرة معلومات خان واطلاعه على آخر التطورات في مجال النقل الذي صار يتقنه بل ويتنبأ بمستقبله، الأمر الذي شجعني على السؤال إن كان بإمكانه مرافقتي في رحلتي الذهاب والإياب للمدة المتبقية من الأسبوع.

أعجبني حماسه في العمل ودقة حركاته الصغيرة كيف يرفع يده ليشير إلى سيارة متوقفة، يصفع على المقود عند الإشارات، يضحك على رسالة من زميل له ثم يعود للتركيز، وكأنه يوازن بين عالمي أنا كراكب معه وعالمه هو كسائق ليعيش بينهما.

*****

لا أنسى أن كل رحلة لي بسيارات الأجرة في فترة تعطل سيارتي الخاصة تلك كانت نافذة مفتوحة لي على صبر السائقين وغربتهم، وأحلامهم المؤجلة التي تتنقل بين زحمة المدينة وحرارتها.

عند نهاية كل يوم، كنت أنزل من سيارة الأجرة حاملاً في ذهني صورة حية لشاب غريب في مدينة غريبة له، يحاول أن يوازن بين واقعه وأحلامه، وأقر في نفسي أن الصبر والمثابرة هما الرابط الحقيقي بين جميع الغرباء مهما اختلفت لغاتهم وتعددت أوطانهم.

*****

# جيوب فارغة

قبل كورونا، كانت حياتنا في مجملها بسيطة تحمل طقوسا صغيرة لكنها كانت مألوفة لنا. كنا نقف في طوابير البنوك لنتمكّن من فتح حساب بنكي، أو سحب نقود، أو إيداع مبلغ، وأحيانًا يحدث هذا أمام ماكينة الصراف الآلي (ATM) بأول كل شهر. كانت الأوراق النقدية جزءًا من يومنا، نلمسها، نعدها، نتبادلها في محلات البقالة والمطاعم، وفي كل ركن فيه بيع وشراء.

وصلنا فيروس كورونا في أوائل 2020 ليغير الكثير من تلك الطقوس، فجأة أغلقت البنوك أبوابها، وحلّ الحظر على الناس كظلام دامس، وصار العمل عن بعد سيد الموقف. لم تعد البطاقة البنكية خيارًا، بل صارت ضرورة ملحة. أصبح استخدامها في المخبز، والمطعم، والمول، والسوبرماركت، وحتى في وسائل النقل قاعدة لا غنى عنها.

كنت ألاحظ هذا التغيير السريع حينما أحتاج لإنجاز معاملاتي البنكية الضرورية عن بعد عبر الموقع الرسمي للبنك أو من خلال البطاقة البنكية. حتى بعد أن انحسر الفيروس وفُك الحظر الشديد عنا، ظل معظمنا يميل إلى التعامل الإلكتروني، وكأننا اعتادنا عليه أكثر من التعامل النقدي المباشر.

البنوك نفسها بدأت تحفّز العملاء على استخدام تطبيقاتها الإلكترونية في معاملاتهم البنكية بدل الحضور الشخصي. فيما أظن أن وراء هذا التحفيز، تقبع أهداف تشغيلية لعل أهمها تقليل عدد الموظفين في الفروع، وخفض عدد موظفي الكاشير، وتقليل عدد الفروع في المدينة الواحدة.

لا أنكر أنني كعميل قد عانيت بعض الصعوبات من التواصل مع البنك الذي أتعامل معه خلال فترة كورونا، خاصة حين بدأت البنوك بتوجيه عملائها بالتواصل معها عبر مراكز اتصال مركزية لكل بنك بدلاً عن البدالة السائدة قبل ذلك.

في إحدى محاولاتي المتكررة للتواصل مع موظف بالبنك يعرف تفاصيل ما أريد. أخبرني موظف مركز الاتصال بنبرة واثقة:

- أغلب البنوك الآن تركز على خدمة العملاء عن بُعد، كما تفعل شركات الاتصالات التي تُوظّف مراكز الاستعلامات في دول بعيدة أقل تكلفة في الموارد.

ابتسمت مندهشًا من هذا الإجراء، وقلت له:

- أهذا مجرد توجه مؤقت، أم شيء ممنهج قادم؟

ردّ عليّ بسرعة وكأن الأمر كان محسومًا:

- أكيد قادم، لكنه يحدث الآن.

وتابع مشيرًا إلى ما رآه خلال عمله:

- البنوك والشركات الكبرى لا تعمل على فرضيات، بل تراقب سلوك العملاء. كل إجراء أو خدمة أو قرار بالبنوك مبني على توقعات المستخدمين، لا على أفكار الإدارة وحدها.

توقفت قليلاً لأستوعب أكثر. ثم سألته بجرأة:

- هل تعتقد أن الأوراق النقدية ستختفي تمامًا من جيوبنا؟

ابتسم وأجاب:

- أنا لا أتوقع ذلك فقط، بل أنا متأكد خلال عقد من الزمن، قلّما ستجد النقود الورقية في جيوب الناس. بطاقات الصراف التقليدية أيضًا ستتراجع، وستحل محلها المحافظ الرقمية في كل تعامل. العملية ستبدأ من المدن الكبيرة والنشطة اقتصاديا، ثم تمتد تدريجيًا إلى المدن الأصغر ثم الريف.

أخذت نفسًا طويلاً، وأنا أتأمل الصورة أمام عيني لأفهمها، مدينة بلا أوراق نقدية، وكل تعامل يجري إلكترونيًا، كل معاملة مسجلة، كل فلس محمي. قلت له:

- هذا تحول ضخم، أليس كذلك؟

أجاب بثقة:

- بالطبع، ولن يتم تنفيذه دفعة واحدة. لكن خلال عقد من الزمن وليس أكثر، أظن أن البنوك الصغيرة ستصبح أقل وجودًا لأنها ستندمج مع الأكبر منها. وسيتركز وجود الأموال الورقية والمعدنية في المصرف المركزي أكثر من البنوك العاملة.

لا أنكر أنني شعرت بالدهشة والتأمل معًا في كل لحظة من مكالمتي مع موظف مركز الاتصال. كنت أتخيل كيف سيبدو العالم بعد عشر سنوات من الآن: حياة أسرع، معاملات أسهل، وبشر أكثر اعتمادًا على التكنولوجيا، وأقل اتصالاً بالواقع الملموس. كيف سيتعامل الأطفال مع المال، كيف سيفرحون بعيدياتهم، كيف ستتقلص الوظائف في البنوك، وكيف ستصبح علاقاتنا بالقيم المالية مجرد أرقام على شاشة؟

أنهيت مكالمتي مع مركز الاتصال بالبنك الذي لا اعرف بالضبط من أين يرد على اتصالي من المدينة التي أقيم فيها أم من مدينة أخرى، وجلست أتأمل مدينة العين العامرة من نافذة منزلي. كيف كان الجو نفسه، الشوارع نفسها، لكن العالم بدا وكأنه يتحرك بخطى أسرع نحو شيء لم أعد أستطيع لمسه بأصابعي، شيء رقمي بالكامل. شعرت بأنني جزء من تحول أكبر، أكبر من أي شخص، أكبر من أي بنك، أكبر من أي طابور كنت أقف فيه يومًا ما لساعات عديدة لأنجز معاملة كانت لا تستغرق سوى دقائق معدودة.

فقلت في نفسي هامسًا:

- نعم إنه قطار التغيير الذي لا يتوقف، قد يتلكأ قليلا لكنه لا يتوقف، فما كنا نعتبره مألوفًا بالأمس، سيصبح يوما ما مجرد ذكرى نرويها للأجيال القادمة، التي قد لا تعرف تمامًا ماهية الأوراق النقدية وما كان يعنيه لنا حملها في جيوبنا وبين أيدينا.

*****

# من منا لا يتغير

في إحدى أيام إجازتي الأخيرة، استيقظت مبكرًا على غير عادتي. شعرت بحاجة إلى بعض التغيير وكسر رتابة يوم الإجازة المعتاد، فقررت أن أذهب لوحدي في زيارة إلى مركز اللولو إكسبرس المتعدد الطوابق القريب من منزلي في حي المربعة بمدينة العين الإماراتية. باعتبار أنني اعتدت على زيارته مع العائلة لشراء الاحتياجات السريعة للبيت، الأمر الذي جعلني متسوقًا بارعًا فيه أعرف جميع أقسامه ومعظم موظفيه.

زيارتي الصاحية تلك كانت بمفردي وبدون أي قائمة تسوّق أو أي خطة محددة، كانت فقط بدافع الفضول واستنشاق هواء المكيّف الذي يبعث على الراحة والانتعاش بعد ممارسة رياضة المشي الصباحية في الحي لمسافة ليست طويلة.

دخلت المركز من بوابته الأمامية، في طابقه الأرضي، كان المكان يزدحم بعربات التسوق وروائح المخبوزات والقهوة الطازجة القادمة من الطابق السفلي. كان يوم الزيارة يومًا عاديا للجميع، قليل من العائلات كانت تتنقّل بين أقسام المتجر، وأطفال يتسابقون نحو قسم الألعاب، وموظفون يقدمون عروض اليوم بابتسامات محفوظة.

بدأت جولتي من قسم الخضار والفواكه في الطابق السفلي، ثم مررت على المخبز، وبعد دقائق قليلة وجدت نفسي أتجه نحو السلالم المتحركة المؤدية

للطابق الأرضي ثم الأول، وكأن شيئًا ما كان يدفعني لاستكشاف ما لم أعتد التوقف عنده من قبل.

في الطابق الأول يوجد قسم الإلكترونيات الذي يشغل مساحة واسعة من جهته اليسرى. أول ما دخلت إليه أثارت اهتمامي الإضاءة البيضاء الساطعة وانعكاسها على الشاشات الحديثة والأجهزة المصفوفة حولها بعناية. تجولت بالقسم بخطوات متأنية، لا بنيّة الشراء، بل بشيء من الفضول وقضاء وقت فراغ لا أكثر.

بدأت جولتي بين الرفوف أتفحص ما عليها، اقترب من شاشات مسطحة بأحجام لم أعهدها من قبل، وشاشات 3Dوأمامها نظارات خاصة بها، وأجهزة صوتية صغيرة يقولون إنها تعوّض عن أنظمة المسرح المنزلي القديمة، وساعات ذكية تخبرك بكل شيء بالإضافة للوقت، وسماعات لاسلكية بالكاد ترى حجمها. بالإضافة للكثير من الأجهزة التي لم أعرفها ولم أشاهدها من قبل. أحسست للحظة وكأنني دخلت متجرًا ضخمًا من المستقبل.

توقفت طويلاً متأملاً عند ركن جانبي يُعرض فيه أجهزة بث وأجهزة تحكّم منزلي، الأمر الذي لفت انتباه أحد موظفي خدمة الزبائن فجاءني بخطوات سريعة وابتسامة رسمية، وقف بجانبي وقال بصوت منخفض:

- إذا تحتاج أي مساعدة يا أستاذ أنا موجود.

هززت رأسي له بالامتنان والشكر، لكن في لحظتها تولّدت في داخلي فكرة طريفة. ربما أردت أن أُجرّب شيئًا من المزاح معه لتحسين المزاج، أو ربما أردت أن أستحضر زمنًا آخر وسط هذا المعرض اللامع من الحداثة.

التفتُّ إليه وقلت بجدّية مصطنعة:

- أنا في الحقيقة أبحث عن أشرطة كاسيت وفيديو.

لم أتوقع رد فعله بتلك الحدة الصامتة. اتسعت عيناه قليلاً وكأنه كان يحاول أن يستوعب إن كنت أمزح معه أم أنني خرجت لتويّ من زمن مضى. ظل ينظر إليّ للحظات قليلة، ثم أخذ يومئ برأسه لليمين واليسار إشعارًا بالنفي. شعرت وكأنه سمع سؤالاً من شخص تفصله عنه فجوة زمنية.

بدون أن أبدي أي إشارة لفهم دهشته، تابعت بنفس النبرة الواثقة:

- طيب، عندكم جهاز تلفزيون من النوع التقليدي القديم الذي يكون على شكل صندوق؟

رفع عينيه وحاجبيه أكثر وكأنه فقد تماسكه ولم يستوعب سؤالي رغم أن كلماتي كانت بلغة بسيطة متداولة يفهمها القاصي والداني بدول الخليج، وقال بلهجة فيها مزيج من الاستغراب والضحك المكبوت:

- عن ماذا تتكلم يا صديق؟

لم أتمالك نفسي وانفجرت ضاحكًا، وقلت له وأنا أضع يدي على كتفه:

- لا تخاف، أنا من هذا الزمن، أنا فقط أختبر صبرك. وأعرف إن أشرطة الفيديو والكاسيت انقرضت وراحت أيامها من زمان. وأن تلفزيون الصندوق لم يعد مألوفا في عالم شاشات العرض هذه.

ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، وكأنه اعتبر كلماتي الأخيرة كاعتذار، لكنه بدا لي وكأنه يحاول التأكد من أنني أعيش مثله في القرن الحادي والعشرين. فقال مستفهمًا:

- واضح أنك مهتم بالإلكترونيات القديمة. هل عندك محل تصليح أو أنك تحتفظ بهذه الأشياء القديمة؟

هززت رأسي نافيًا وأنا أتابع حديثي بنبرة أكثر هدوءا:

- لا لا، الموضوع أبسط من ذلك. لكن كما ترى كيف تغيرت الدنيا بسرعة. قبل سنوات كان الفاكس أهم جهاز في المكاتب، واليوم يختفي بصمت. هل تتذكر الهواتف الآلية ذات القرص؟ هل تتذكر أقراص الحواسيب المرنة؟ والأقراص المدمجة؟ كلها راحت. وقريبًا الكاميرات الرقمية البسيطة سوف تمضي، كما مضت الكاميرات العادية التي كنا نحمّض أفلامها في مخابر مختصة.

ظل واقفًا أمامي للحظات مستغربًا وكأنه يفكر فيما أقول، ثم قال بنبرة فيها شيء من الإقرار:

- فعلاً، من منا لا يتغير!

نابعت حديثي معه عن التطورات المذهلة كي لا يسئ ظنه بي أكثر:

- من يدري يا صديقي لعل المستقبل القريب يشهد نقلة نوعية أكبر مما نتوقع في أجهزة الصوت والتصوير. أظن أن التركيز لن يكون فقط على مواصفات الأجهزة بقدر ما سيكون على التجربة التفاعلية التي تقدمها لنا هذه الأجهزة كمستخدمين. أتوقع إن أنظمة الصوت ستعدل نفسها بنفسها تلقائيًا حسب البيئة المحيطة. وستنتشر تقنية الصوت المكاني ثلاثي الأبعاد. وسيكون هنالك شفافية سمعية تتيح سماع الأصوات المهمة أثناء الاستماع للمحتوى. أتوقع في المستقبل القريب ستكون الأجهزة الصوتية أصغر حجمًا مما هي عليه الأن وستكون أكثر اندماجًا في المنزل الذكي. أما في التصوير ستفهم الكاميرات

المشهد أمامها وتضبط الإعدادات تلقائيًا قبل التقاط الصورة. وسيكون هنالك دمجا للواقع المعزز لتخطيط اللقطات والتأثيرات الفورية. وبالنسبة للمستشعرات ستكون صغيرة وبجودة احترافية عبر تقنيات الحوسبة التصويرية. وسيتحسن التصوير الليلي أكثر من خلال الذكاء اصطناعي دون الحاجة للفلاش.

أنهيت حديثي مع موظف المبيعات عندما رأيت على وجهه أثار الدهشة. اتسعت عيناه حتى كادت تخرج من محجريهما، وتدلت شفته السفلى بلا وعي، حاول أن ينطق بكلمة لكن صوته كان مهموسًا وكأنه فقد الاتصال بخوادم المعرفة في داخله، فاكتفى بابتسامة مشدودة على وجهه وقال بصوت مرتجف:

- آه نعم..

تابعت جولتي في القسم بينما هو انصرف إلى زبون آخر عله يقنعه بعملية شراء تكسبه شيئا بدلا من ثرثرة صباحية لا تعود عليه بأي نفع، لكنّي بقيت أفكر في نظراته وردّة فعله. وكيف لو أكثرت من الحديث معه وأوغلت أكثر في ماضي هذه الأجهزة وسألته بجدية عن إمكانية توفر أجهزة قديمة مثل جهاز الجراموفون أو الفونوغراف وأسطوانات الفينيل عندهم في القسم، ربما كان سيخرج من طوره ويشد شعر رأسه استغرابا وقهرا، وربما كان يعتبر تلك أشياء موجودة فقط في قصص آبائه الأوليين، لكنني أدركت في تلك اللحظة أن الزمن ليس مجرد تواريخ، بل ذاكرة تتحرك بداخلنا أينما ذهبنا.

قبل أن أغادر قسم الإلكترونيات توقفت مرة أخرى أمام شاشة ضخمة عُرض عليها صور حيوانات برية بدقة عالية، وقلت في نفسي مبتسمًا:

- من يدري؟ بعد عشر سنوات يمكن لمن يضحكون على أسئلتي اليوم أن يطالبوا بمتحف للأجهزة التي يشاهدوها حولهم اليوم.

لم أصعد للطابق العلوي حيث الأحذية والملبوسات، بل نزلت من الطابق الأول وأنا أشعر بشيء من الخفّة، وكأن ذلك الموقف مع الموظف ساعدني في إعادة ترتيب ذاكرتي وربط الحاضر بالماضي بخيط شفاف من الدهشة والسخرية. تركت خلفي قسم الإلكترونيات، لكن الفكرة بقيت ترافقني: "من منا لا يتغير"

بينما كنت أعبر قسم السوبر ماركت وممرّ العطور بالطابق الأرضي متجهًا نحو المخرج الخلفي لمركز التسوق، تساءلت في نفسي:

- هل نحن من نغادر الأجهزة... أم هي من تغادرنا بصمت واحدًا تلو الآخر؟

*****

# موظفون تحت رحمة التكنولوجيا

لم أنسَ ذلك اليوم من عام 1996م حين دخل فيه جهاز الحاسوب لأول مرة إلى مكان عملي الأول في الغربة. كنت حينها أعمل في قسم المكتبة العامة، ومعي زملاء في أقسام شتى من مكان العمل: موظف أرشيف، ومحاسِب، وسكرتير، وأمين مخزن.

كنّا نرى الحواسيب وهي تُنقل إلى مكاتبنا كما تُنقل خزائن الأسرار، كنا نتبادل النظرات الصامتة وكأننا نشيّع وظائفنا قبل أوانها.

أذكر أن صديقي المصري.. موظف الأرشيف، قال يومها وهو يراقب الفنيين كيف يركّبون أجهزة الحاسوب:

- جاءنا الحاسوب ليجتثّ الملفات من بين أيدينا، بدون أن نحسب لقدومه أي حساب، فماذا تبقى لنا لنفعله؟

لم أجب عليه وقتئذ، لكن قلبي كان يجيبه بصوت أعلى من قدرتي على النطق.

بعد انتقالي للعمل في الجامعة بمنتصف عام 2000م، بدأنا نسمع عن برامج تحفظ الوثائق إلكترونيًا، وتُدخل البيانات في ثوانٍ، وتستخرج الملفات بلمحة بصر. كنت أرى واسمع موظفي السكرتارية وإدارة المكاتب يتبادلون القلق، وكان المحاسبون يتساءلون :

- هل ستبقى هنالك أي حاجة إلى دفاتر الحسابات؟

حتى موظفو الاستقبال كانوا يتوجسون من أن يُستبدل وجودهم بشاشات.

مع ازدياد الهواجس التي عمت أماكن العمل وراحت تؤثر على الأعمال المكتبية اليومية في مستهل القرن الواحد والعشرين، عقدت إدارة الموارد البشرية بالجامعة التي أعمل بها اجتماعا طارئًا. جلس فيه مدير الإدارة أمامنا بثبات وقال بنبرة واثقة:

- لن يُستغنى عن أحد منكم بسبب وجود الحواسيب. من تتأثر مهامه سندرّبه أو ننقله إلى مكان آخر بالجامعة لا يعتمد كليًا على التقنيات الحديثة. عليكم أن تعلموا أن التكنولوجيا ليست بديلة عن وجود الإنسان بل هي أداة لتوفير وقته وجهده وفتح أبواب جديدة أمامه للتفكير والإبداع.

رغم أن كلماته لم تُنهِ القلق تمامًا يومها، لكنها أطفأت بعض نيرانه.

بعد فترة، تم توزيع مدخلي البيانات على أقسام أخرى، موظفو الأرشيف أُسندت إليهم مهام رقمنة السجلات، وحفظة الأرشيف أصبحوا يتعاملون مع الأنظمة الإلكترونية بدلاً من الدفاتر الورقية.

هدأت العاصفة وقتها، وتعايشنا مع الواقع الجديد لكن يبدو أنه لم يكن آخر المطاف، فجأة هبّ في وجوهنا التوطين، مضى عقد ونيف علينا بالعمل ومعظمنا كان قابعًا بين مطرقة التكنولوجيا وسندان الإحلال الوظيفي المتدرج، وفجأة وبدون أي حسبان ظهر لنا الذكاء الاصطناعي.. الكابوس الجديد المرتبط ارتباطا وثيقا بالتكنولوجيا وآخر تطوراتها.

صار الكل يتساءل:

- هل يُخبّئ لنا الزمن بهذا الكابوس موجة أعظم وخوف أكبر.

صرنا نسمع بكثرة عن تطبيقات الذكاء الاصطناعي، مثل (GPT) وإصداراته المتسلسلة، في البداية لم يعره أحدٌ منا نحن الموظفون أي اهتمام أو قلق، لكن مع سرعة انتشاره بدأنا نشعر أن الخوف القديم عاد، لكن بلا قناع هذه المرة. حاول معظمنا تهميشه والتشكيك في مصداقيته، لكن انتشاره صار أوسع وصداه عمّ العالم أجمع. معه تغيرت الملامح، وتبدلت طرق التفكير، وأصبحت الحكومات نفسها تتحدث عن تبنّيه في مختلف قطاعاتها. فلو عاد مدير الإدارة البشرية وعقد اجتماعا جديدا لطمأنتنا ماذا سيقول لنصدقه، هل سيقول إلا: "الذي يريد أن يستمر بالعمل يجب أن يستخدم الذكاء الاصطناعي ويتفوق عليه وهذا التفوق هو السمة التنافسية في المستقبل".

رغم أن الوظائف الحكومية لم تتأثر بعد بوجود الذكاء الاصطناعي، لكن بدأت أصوات الإحلال الوظيفي بسبب الذكاء الاصطناعي تتعالى في القطاع الخاص، سمعت عن كثيرين في خدمة العملاء تم استبدالهم بأنظمة دردشة ذكية، وموظفي الدعم الفني خُفضت أعدادهم لصالح روبوتات قادرة على التشخيص الأولي للمشكلات.

أما مراكز الاتصال في الكثير من المؤسسات الهامة والبنوك بدأت تتلقى ضربتها شيئًا فشيئًا، إذ حلّت أنظمة الرد الآلي المتقدم محل كثير من المقاعد. حتى المحاسبون في الشركات التجارية صاروا يواجهون منافسة من البرامج الذكية التي تُعدّ التقارير وتحلل البيانات قبل أن ينجزها المستخدم نفسه.

وظائف روتينية بدأت تتلاشى وفرص لوظائف أخرى صار يقل عددها أوحتى يندر الإعلان عنها بسبب الذكاء الاصطناعي الذي بدأ بالعمل على إعادة تشكيل سوق العمل من جديد.

*****

ذات مساء، جلست في مقهى قريب لسكني مع زميلي في العمل، وهو موظف تنسيق تحول سابقا من موظف أرشيف. قال لي وهو يحرّك كوب القهوة بين يديه:

- في السابق، قِيل لنا إن الحاسوب مجرّد أداة مساعدة، فإذا بالأداة تتطوّر وتكاد تلتهم المهام. فكيف بنا اليوم مع ذكاءٍ يتعلم وينفّذ ويتنبأ؟

أجبته وأنا أتأمل شاشة هاتفي التي أصبحت عالمًا مفتوحًا:

- نحن الآن في قلب المعركة، ولسنا مجرد متفرجين. الفرق أن الزمن هذه المرة صار أسرع، والخطوات أوسع، وبدائل الموظفين صارت أكثر إغراءً لأصحاب الأعمال. ألا ترى يا صديقي أن المستقبل يقف على ربوة يراقبنا بصمت. كثير من الوظائف التي كانت تُعدّ ثابتة باتت على حافة التحوّل، إن لم تكن على أعتاب الاندثار. موظفو إدخال البيانات الذين صمدوا أمام ظهور الحاسوب وتطور برامجه أخشى أن لا يجدوا لأنفسهم مكانًا غدًا، وموظفو الأرشيف لن ينافسوا أنظمة الفهرسة المؤتمتة ما لم يُعاد تأهيلهم. المحاسبون، كتبة العقود، أمناء المخازن، موظفو الاستقبال، ومسؤولو مراكز الاتصال، كلهم اليوم أصبحوا تحت مجهر التغيير ورحمة التكنولوجيا.

توقف صاحبي قليلا عن ارتشاف قهوته وقال بنبرة مرتعشة:

- رغم كل هذا التضخيم للذكاء الاصطناعي، لكنني أرى أن أبوابًا أخرى ستُفتح، وإن كانت أقل وضوحًا. أظن أن وظائفًا جديدة سيعلن عنها تتعلق بإدارة الأنظمة الذكية، ومراقبة جودة البيانات، وتدريب الخوارزميات، والإشراف على سلامة القرارات الآلية.

أجبته على الفور:

- أحسنت قولاً، فمن يواكب ويتعلم سيبقى، ومن يقف عند حدود الأمس سيفوته قطار الغد. نعم يا صديقي ستمر السنون بما فيها من حلو ومر كما مرت على أسلافنا، وسنروي لحظات القلق هذه لمن يأتي بعدنا. في الأمس كان خوفنا من الحاسوب والإنترنت، واليوم أصبح من الذكاء الاصطناعي، وغدًا سيكون البقاء للأكثر قدرة على التكيّف. لعل الأجيال القادمة ستنظر إلى قلقنا كما نظرنا نحن إلى رهبة من سبقونا. غير أن حقيقة واحدة لا تغيب عن البال: إن المستقبل لا يطرق الباب، بل يدخله بلا استئذان ومن لا يستعد لاستقباله سيُزاح جانبًا دون أن يشعر.

*****

# الدوام عن بُعد

في زاوية هادئة داخل مبنى F3 مقر كلية الدراسات العليا، جلستُ مع معاذ، خريج ماجستير الهندسة المدنية الذي عانى أكثر مما تحمله قلوب الشباب في مثل عمره. حارج المبنى كان الطقس حارًا، لكن صوت معاذ وهو يحدثني عن جائحة كورونا كان يحمل شيئًا من برودة تلك الأيام القاسية.

قلت له وأنا أتأمله:

- معاذ... مرت سنتان على تلك الفترة وكأنها عمر كامل. كورونا لم تكن مجرد مرض، كانت زلزالاً قلَبَ حياتنا جميعًا..

ابتسم بحزن وأجاب بصوت منخفض:

- صحيح، بالأخص بالنسبة لي، لم تكن الجائحة مجرد أخبار وأرقام. لقد أخذت مني أغلى إنسانة في حياتي.. أمي. لم أكن أتوقع أن فيروسا غير مرئي يمكن أن يسرقها مني بتلك السرعة.

شعرتُ بغصّة في حلقي وأنا أسمعه. مددت يدي ووضعتها على كتفه وقلت:

- رحمها الله يا صديقي. أتذكر أيامك العصيبة تلك، كنتَ تكافح فيها لتكمل دراستك رغم الألم. ومع ذلك لم تتوقف. كنتَ تحضر المحاضرات عن بعد، وتسلّم أبحاثك في وقتها، وتناقش أساتذتك وكأنك تحمل في قلبك قوتين: قوة الحزن على الفقد، وقوة الإصرار التي أوصلتك باقتدار إلى دراسة الدكتوراه، فكيف حالك الآن يا دكتور المستقبل؟

قال ضاحكًا بخجل:

- الحمد لله... مشوار نيل شهادة الدكتوراه طويل، من كان يصدق أنني سأصل إلى مرحلة الدكتوراه؟ أحيانًا لا أصدق نفسي.

نظرت إليه مليًا وقلت:

- صدقني يا معاذ، أنا الوحيد تقريبًا الذي يعرف كم دفعت ثمنًا لتصل إلى هنا.

سكت للحظة، ثم نظر إلى الأرض وقال بصوت متردد:

- أتعلم يا أخي؟ كلما كان يقترب موعد مناقشتي لرسالة الماجستير، كنت أشعر بروح أمي تحيط بي من كل جانب. أتذكر آخر مرة رأيتها فيها كانت ترقد على سرير المستشفى، والأجهزة تحيط بها من كل جانب. لم أستوعب وقتها أن فيروسا صغيرًا يمكن أن يسلبني دفء حنانها.

أحنيت رأسي احترامًا لكلماته المؤلمة، وقلت له بلطف:

- رحمها الله. كنتَ قويًا يا معاذ. رأيتُ كيف واصلت دراستك وأنت تحمل ذلك الوجع.

تنهد وقال:

- أي قوة؟ لم أكن أشعر أنني قوي حينها، كنت أستيقظ كل صباح وأتمنى لو أن كل ما يحدث مجرد كابوس. الإغلاق كان خانقًا، والبيت بدونها كان فارغًا، لكن كلماتها الأخيرة كانت لي دائمًا خير دافع: "أكمل دراستك يا ابني مهما كانت الظروف".. كلماتها تلك كانت سرّ نجاتي.

ابتسمتُ وقلت:

- وها أنت قد أوفيت بالوصية. أيام كورونا لم تكن سهلة على أحد. المرض، والخوف، والخسائر، ومع ذلك، الجامعة كانت كالنور وسط الظلام. لا محاضرة توقفت، ولا اجتماع ألغي، ولا امتحان تأجل. كل شيء استمر. كأننا كنا في معركة إثبات أننا أقوى من أي فوضى. أو طارئ.

رفع معاذ رأسه متأملاً وقال:

- أجل، كنت أحضر المحاضرات من غرفتي الصغيرة، أحيانًا بدموع لم أستطع إخفاءها، لكنني أجد نفسي وسط زملائي وأساتذتي عبر الشاشة، فأشعر أنني لست وحدي. تلك المرونة، ذلك التنظيم، ساعداني أن أتماسك وأبقى واقفًا.

ضحكتُ وأنا أتذكر:

- كنت أنا أيضًا أعمل من البيت. ابنتي تدرس في الغرفة المجاورة، وأصوات معلماتها تختلط بأصوات اجتماعاتي. كل بيت صار مدرسة صغيرة، ومع ذلك استمرت الحياة. لم أشعر للحظة أن عملنا تعطّل.

أشرق وجه معاذ بابتسامة ممتنة وقال:

- الصراحة، لم تمنحني الجامعة العلم فقط، بل منحتني الأمل. لولا الدوام عن بُعد، لربما فقدت دراستي مع فقداني لأمي. لكنني الآن هنا في كلية الهندسة، أدرس الدكتوراه، وأحمل في قلبي وعدًا أن أجعل أمي فخورة بي، حتى وهي بعيدة.

وضعت يدي على كتفه وقلت بثقة:

- ستكون فخورة بك دائمًا، يا معاذ. صدقني، ما حققته ليس نجاحًا عاديًا، بل شهادة حياة. نحن شهود على زمن غيّر العالم، لكننا الحمد لله لم نستسلم فيه.

ساد بيننا صمت قصير، لم يقطعه إلا صوت رنين هاتف مكتب مجاور.

قال معاذ بهدوء:

- تعرف؟ أحيانًا أشعر أن فترة كورونا رغم قسوتها، تركت لنا درسًا عظيمًا تعلمنا فيه الوقوف مهما وقعنا، تعلمت فيه أن جامعتنا ليست جدرانًا بل عقل وقلب.

ابتسمت وقلت:

- هل تعلم أن أكثر ما أثبته العمل عن بعد أننا قادرون على الإنجاز بلا حدود. هيئة الموارد البشرية بالامارات باتت تتبناه كنموذج جديد للعمل. ربما في المستقبل لن نحتاج للحضور اليومي إلى المكاتب. يكفي أن نكون متصلين، مثلما كنا في أيام كورونا.

قال مؤكدًا على كلامي:

رغم أنه العمل عن بُعد لم يكن خيارا، بل ضرورة ملحة، لكنه اثبت صحته كما لو أنه حضور فعلي.

أجبته وأنا أنظر إليه بإعجاب:

- نعم صدقت، سأروي لأحفادي يومًا أننا واجهنا زمنًا حاول أن يُوقف العالم كله، لكننا عملنا، وحلمنا، وأكملنا المشوار.

ابتسم معاذ ابتسامة واسعة هذه المرة، وقال بثقة:

- وأنا سأروي لأبنائي أنني لم أستسلم بل صرت دكتورًا كما أرادت أمي.

غمرني شعور بالفخر وأنا أنظر إلى ذاك الشاب الطموح الذي كاد أن ينكسر يومًا، لكنه أصبح برهانًا لصحة مقولة أن الحزن يمكن أن يتحول إلى دافع، وأن الخسارة قد تصنع من الإنسان قوة لا تنطفئ.

*****

# مشفى من المستقبل

بينما كنتُ جالسًا في مكتبي بالجامعة في اليوم الرابع من شهر أبريل 2023، منشغلاً في ترتيب بعض الملفات المتناثرة فوق طاولة مكتبي، دخل عليّ زميلي بالدوام.. عمر الإماراتي دون أن يطرق الباب كعادته، وأغلقه خلفه برفق. التفتُّ إليه فابتسم وقال وهو يضع حقيبته على الكرسي المقابل:

- يبدو أنّك هنا بجسدك فقط، كأن شيئًا ما يشغل بالك. جئت إليك يوم الأمس لألقي عليك التحية فلم أجدك، يبدو أنه كان لديك التزاما خارج المكتب؟

تبسمت وقلت:

- بالحقيقة، كنت خارج الجامعة في زيارة طويلة لقريبي المريض المقيم في المشفى.

- سلامات، سلامات، عساه بخير الآن؟ في أي مشفى؟

- في مستشفى توام. الحمد لله على كل حال، وضعه الصحي حرج إلى حد ما

- هل يحتاج لأي مساعدة؟ هل هو مرتاح في المشفى؟

- يقولون لو أن المستشفى قصرا لما أراد أحدٌ منا دخولها فكيف الإقامة فيها مريضًا، ولكن للضرورة أحكام، أليس كذلك؟

- صحيح

- لكن لأكون منصفًا، ذُهلت يوم أمس بما رأيت في المستشفى من ترتيب وتفاني في الخدمة، لم أتوقع أن أخرج من زيارتي بهذا القدر من الانبهار.

اقترب عمر من النافذة، وأسند يده إلى حافتها متطلعًا إلى الساحة الخارجية حيث تتجمع سيارات الطلبة، قبل أن يلتفت إليّ ويقول:

- تبدو وكأنك رأيت ما يحرّك الخيال.

أومأت وأنا أزيح كرسيي قليلاً إلى الخلف:

- ليس الخيال وحسب بل والواقع، منذ اللحظة التي وطئت فيها قدمي مبنى المستشفى شعرت أنّ المكان لم يعد كما عهدته سابقًا. فرقٌ كبير ما كان في بداية عام 2000 وما هو عليه الأن. البنية التحتية وحدها توحي بأنك في منشأة مستقبلية.. تصميم حديث، ممرّات واسعة، إضاءة مدروسة، وكل زاوية فيها تنطق بالعناية والدقّة.

أخيرًا، جلس عمر على كرسي مجاور لي، وأسند ذراعه إلى طاولة مكتبي بتلقائية، وقال في تعجب:

- يبدو أن الحديث سيطول

تابعت قائلاً:

- حتى قسم الاستعلامات لم يعد يسمى كذلك، تخيّل! صاروا يطلقون عليه قسم إسعاد المرضى، وليس الاسم فقط ما قد تغيّر، بل الجوّ كله. كأن المستشفى قد تحول إلى فندق 5 نجوم. الموظفون يستقبلونك وكأنهم سفراء لراحة المرضى، لا مجرّد موظفين عاديين.

هزّ رأسه بإعجاب وقال لي:

- يبدو أنهم تجاوزوا فكرة الخدمة إلى فكرة الإسعاد.

ابتسمت وأنا أضع هاتفي جانبًا:

- بالضبط، إدارة المستشفى من حيث الطواقم البشرية والعناصر الطبية بدت أكثر اتساقًا وفاعلية. لكن ما جعلني أراجع كثيرًا من تصوّراتي هو التحوّل الرقمي الذي رأيته بعيني.

اعتدل عمر في جلسته كمن يستعد للإصغاء بتركيز أكبر، ثم قال:

- ماذا تعني:

واصلت بالقول:

- السجلات الورقية التي كانت تتكدس في المكاتب اختفت تقريبًا. أصبحت السجلات الطبية إلكترونية بالكامل، موجودة على سحابة طبية مرتبطة بالهوية الرقمية، تُستدعى في ثوانٍ، وتُحلل بمساعدة الذكاء الاصطناعي.

حرّك عمر يده على سطح مكتبي كأنه كان يقيس وقع ما سمعه من كلام وقال:

- ذلك يعني أنّ المرضى لم يعودوا ينتظرون وسط ملفات وأختام وتواقيع.

أجبت وأنا أستعيد ما رأيته:

- حتى الانتظار نفسه لم يعد كما كان. المواعيد والمعاينات خفت ولم تعد ترتبط بالجلوس في الردهات أو الوقوف عند النوافذ. بدأ الطب عن بُعد يشق طريقه ويصبح واقعًا ملموسا، استشارات عبر الهاتف، وتطبيقات ذكية تتولى الفرز الأولي، وروبوتات طبية تدعم القرارات العلاجية.

تنهد عمر بخفة وقال بنبرة تأمّل:

- يا لها من قفزة نوعية، كأن الزمن اختصر المسافات الطويلة دفعة واحدة.

ابتسمت وأنا أسترسل بالشرح:

- وأزيدك من الشعر بيتًا، حدثني طبيب مختص في المشفى عن تحولات جديدة قادمة بدأت تخطو في أروقة المؤسسات الطبية لكنها ستأخذ بعضا من الوقت ليكتمل تنفيذها.

- يا لها من زيارة مفيدة

- قال لي أن الكثير من الأدوات والممارسات الطبية التقليدية سوف لن تسلم من التحوّل. مثلا أجهزة قياس العلامات الحيوية التي كنا نراها دومًا، كالضغط اليدوي والترمومتر الزئبقي والعدّ اليدوي للنبض، بدأت تختفي. لتحل محلّها أجهزة ذكية تُلبس أو تُثبت وتراقب كل شيء عن بُعد.

حرّكت يدي لأؤكد الفكرة. وقلت:

- قال لي حتى السماعة الطبية التي كنا نراها رمزًا لنا بدأت تتراجع. ظهرت بدائل رقمية متصل بتطبيقات تعتمد على الذكاء الاصطناعي، بعضها يستخدم التصوير الصوتي ثلاثي الأبعاد لتحليل الصوت الداخلي للجسم.

رفع عمر حاجبيه متعجبًا ثم قال:

- إذا سارت الأمور بهذا الشكل، فلن يبقى الكثير مما ألفناه.

ضحكت قليلاً وأكملت:

- وما الضير في ذلك يا صديقي إن كان كل ذلك في سبيل إسعاد الإنسان والتخفيف عنه، وأخبرني الطبيب أن في الأشعة لم يعد هناك اعتماد كبير على الشرائح القديمة. التصوير الرقمي صار هو الأساس، والتحليل الذكي جزء من

العملية نفسها. والإبر التقليدية تُستبدل بأنظمة حقن بلا إبرة، أو لاصقات دوائية، أو حتى حقن عبر الليزر.

أطرق عمر رأسه لحظة مفكرا بما أقول ثم قال:

- يبدو أن الطب لم يعد وظيفة، بل منظومة متطورة تتحرك بسرعة الضوء.

تابعت بنبرة متأملة:

- نعم، هذا ما بدا لي، تصور أن المحاقن الزجاجية والأدوات القابلة لإعادة الاستخدام تتجه نحو الاندثار هي أيضًا، بعد أن حلّت محلّها الأدوات ذات الاستعمال الواحد والروبوتات الصيدلانية. والمختبرات تغيّر دورها أيضًا؛ صار التحليل الفوري وأجهزة النانو والشرائح الذكية جزءًا من المشهد الجديد.

أخذ عمر نفسًا عميقًا كأنه لم يستوعب المشهد كلّه، فتابعت:

- حتى الجراحة المفتوحة صارت تتراجع أمام المناظير والجراحة الروبوتية، والواقع المعزّز، وتقنيات الهولوجرام[5]. والتخدير نفسه انتقل من الاعتماد على اليد إلى الأنظمة الذكية التي تراقب العلامات الحيوية وتضبط الجرعات ذاتيًا.

نظر عمر إليّ بعينين تجاذبهما الذهول والإعجاب وقال:

- لو لم أعرفك لظننتك تصف مستشفى في رواية خيالية.

---

5 تقنية الهولوجرام هي من تطبيقات الليزر لإنشاء صور مجسمة ثلاثية الأبعاد

ضحكت وأنا أضع الملف الأخير جانبًا:

- صدقني، أنا نفسي أيضًا شعرت للحظة أنني أزور ما يشبه نسخة مبكّرة من المستقبل، لا مجرد مرفق صحي. يبدو أننا لن ننتظر أعوامًا طويلة حتى تتغير ملامح الطب هنا. التغيير بدأ بالفعل.

قبل أن يتركني عمر ويذهب إلى مكتبه، قال لي:

- أذهلتني يا رجل، صدقني أنا ابن البلد لم أعرف كل هذا عن مشافينا. بصراحة أكثر، بهكذا مشافي ومؤسسات صحية، يجب أن تنافس بالسياحة العلاجية أرقى الدول في العالم، لا أظن بعد اليوم هنالك حاجة إلى السفر إلى الخارج من أجل تلقي الرعاية الطبية.

قبل أن يترك المكان، نظر عمر إلى النافذة وكأن الصورة التي رسمتها حول مستشفى توام الحكومي صارت تتمدّد أمامه. أما أنا، فكنت لا أزال أعيش تلك الزيارة كأنها لم تنتهِ بعد.

# الدوام المسائي

بينما كنت أجلس في مكتبي في الجامعة، أحاول التركيز على شاشة الكمبيوتر رغم حرارة شمس يونيو التي راحت تتسلل من النافذة الكبيرة. كان الجو صباحا لكنه خانقًا، والمكيف المركزي بالكاد يخفف من وهج الشمس. أخذت نفسًا عميقًا، وأمسكت بقارورة ماء لأخفف قليلاً من شعوري بالحر. فجأة، دخل عليّ محمد.. زميلي الفلسطيني في العمل، يحمل كوبًا من قهوته المعتادة، وابتسم قائلاً:

- صباح الخير! الشمس اليوم لا ترحم أبدًا.

ابتسمت وأنا أتنهد:

- صباح النور يا محمد... حرارة اليوم فعلاً لا تُطاق. أشعر أن مجرد السير بين المكاتب يكفي لنشعر بالإرهاق.

جلس أمامي وأخذ نفسًا عميقا، ثم قال:

- هل تتذكر كيف كنا نفكر الشهر الماضي في إمكانية تحويل الدوام الصيفي من صباحي إلى مسائي؟ بالفعل يجب التفكير بالأمر بجدية.

ابتسمت، وقلت:

- فعلاً... من السابعة صباحًا وحتى الثالثة تقريبًا، أشعر وكأن كل قطرة عرق مني لها سباق مع حرارة الشمس.

هز رأسه بجدية وقال:

- أعرف أن هذا ليس مجرد شعور وحسب، لأن درجات الحرارة المرتفعة تسبب إجهادًا حراريًا وفقدان سوائل، وحتى ضربات شمس. ناهيك عن الإشعاع فوق البنفسجي الذي يزداد في هذا الوقت من العام.

قلت له:

- صحيح أن وزارة الموارد البشرية والتوطين تمنع العمل تحت أشعة الشمس المباشرة من 12:30 ظهرًا وحتى 3 بعد الظهر بالفترة ما بين منتصف يونيو حتى منتصف سبتمبر. فلماذا لا نُطبق نفس الفكرة على دوامنا المكتبي؟! نبدأ بعد العصر ونعمل حتى بعد العِشاء.

ابتسم محمد وهو يرفع حاجبيه وقال:

- إن صار ذلك، سيقلل الضغط الحراري علينا، ويجعلنا أكثر تركيزًا. وحتى استهلاك الكهرباء سيكون أقل خلال ساعات الذروة.

نظرت من النافذة، وشاهدت الطلاب كيف يسيرون ببطء في الساحة الجامعية، بعضهم يحمل زجاجات المياه، والبعض الآخر يضع يده على عينيه لحماية نفسه من الشمس. وقلت:

- تخيل شعور الموظف والطالب عندما يبدأ يومه بعد العصر، حيث يكون الجو أقل حرارة، وأقل إجهادا، وأكثر تركيزا. أليس هذا منطقيًا أكثر في دول منطقة الخليج الحارة؟

ابتسم محمد وأضاف:

- نعم، وحتى إنتاجيتنا ستتحسن. لدينا أمثلة كثيرة على مرونة قوانين العمل في دول الخليج.. منها التوقيت الشتوي، ساعات العمل في رمضان، والعمل عن بُعد أيام فيروس كورونا. كلها تعديلات حسّنت سير العمل دون الإضرار به.

أومأت برأسي وقلت:

- بالطبع، لكن هنالك بُعد ثقافي وديني يجب مراعاته أولا لاتخاذ هذا القرار. البعض قد يقول إن العمل في المساء يتعارض مع ثقافتنا أو حتى مع الآية الكريمة: {وجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا *****وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}[6]. لكن إذا نظرنا إلى الواقع، التكيف مع الظروف المناخية لم يُغير جوهر العمل، بل يحسّن الإنتاجية وسلامة الجميع.

ضحكنا قليلاً ونحن نشاهد زملاء آخرين في الخارج يتذمرون من الحرارة، وقلت:

- لنبدأ بتدوين أفكارنا. ربما يومًا ما يصبح الدوام الصيفي في المساء واقعًا ملموسًا.

رفع محمد كوب قهوته، وقال:

- لنبدأ يا صديقي... لنبدأ.

---

6 سورة النبأ، الآيتان 9-10

بدأنا نكتب قائمة بالأفكار، كل فكرة تنبثق من تجربة يومية أو ملاحظة بسيطة حول الطلاب أو الزملاء، وكل نقطة تزيد من يقيني بأن هذا التغيير ليس رفاهية، بل أصبح ضرورة حقيقية.

بينما كنا نكتب، دخلت إحدى الزميلات وهي تمسح جبينها، ثم قالت:

- لا أصدق أن علينا الجلوس هنا طوال النهار، الحرارة مرهقة جدًا!

ابتسمت وقلت:

- تمامًا، لهذا نحتاج لتغيير ساعات العمل الصيفية، لتكون أكثر راحة للجميع.

نظر محمد إليّ وقال:

- تخيل أيضًا الجانب الصحي للجميع، تقليل التعرض للإجهاد الحراري، الحفاظ على رطوبة الجسم، الوقاية من ضربات الشمس وأمراض الجلد الناتجة عن الأشعة فوق البنفسجية.

وأضفت:

- وأيضًا توفير الكهرباء والمياه خلال ساعات الذروة، فالأجهزة لن تضطر للعمل على أقصى طاقتها طوال اليوم.

تبادلنا النظرات وضحكنا، لحظتها شعرت أن هناك رغبة مشتركة بيننا في تحسين الوضع دون خرق أي ثقافة أو قانون، مجرد محاولة لتخفيف عبء الشمس على الجميع.

قلت لمحمد:

- تخيل شعور الجميع إذا بدأ الدوام بعد العصر، لن يشعروا بالإرهاق، والطلاب سيكونون أكثر قدرة على التركيز، ونحن سنكون أكثر إنتاجية.

ابتسم محمد وقال:

- تمامًا، هذا ما يجعل الفكرة قابلة للتطبيق. يمكننا أيضًا تجربة الأمر لفترة محددة أولاً، ثم تقييم النتائج، قبل أن يصبح ذلك نموذجًا عامًا.

حين توقف أحد المدرسين بمكتبي لإلقاء التحية، وبعد أن سمع جزءا من حديثنا، قال:

- إن شاء الله تجدون الحل لهذه الحرارة القاسية... الطلاب يعانون أيضًا!

ضحكنا، وقلت:

- كلنا يعاني، إذا طبقنا الدوام المسائي، ربما نشعر جميعًا براحة أكبر، وحتى الطلاب سيكونون أكثر تركيزًا وإنتاجية.

جلسنا صامتين لدقيقة، مستشعرين حرارة الشمس، لكنها لم تعد تبدو بنفس حدتها. شعورنا كان أقرب إلى الأمل؛ أمل بتجربة جديدة ربما تحسن حياة الجميع، حتى لو كان ذلك مجرد نقاش أولي بين زميلين في مكتب جامعي صغير.

رفع محمد كوب قهوته وقال مبتسمًا:

- لنستمر بتوثيق كل الملاحظات، ربما يوما ما يُطلب منا المشاركة في اقتراح تعديل توقيت الدوام الصيفي.

ابتسمت وقلت:

- لنستمر يا محمد

بينما كنا نعمل على الخطة، شعرت بأن فكرة صغيرة يمكن أن تُحدث فرقًا كبيرًا. الحرارة لم تعد عبئًا فقط، بل أصبحت دافعًا للتفكير في حلول تجعل الصيف في الجامعة أكثر إنسانية وأقل إرهاقًا، لكل فرد في أسرتها.

# الريموت كنترول

لا أعرف كيف عاد بي الحنين إلى عام 1984، كأن الذاكرة جرّتني من يدي وأجلستني هناك في بيت العائلة، حين دخل أبي حاملاً بين ذراعيه صندوقًا ضخمًا، لم يكن صندوقًا عاديًا، بل كان لنا فيه تلفازٌ جديد غيّر فيما بعد شكل المساءات في بيتنا، التلفاز كان ملوّنًا يُدار بقطعة صغيرة تسمى "جهاز تحكّم عن بعد" أو "ريموت كنترول" صنعته شركة سيرونكس[7] السورية وتباهت به في تلك السنوات.

أتذكر أن التلفزيون كان شيئًا وجهاز التحكم (الريموت كنترول) كان شيئًا آخرا، إذ لم يكن مجرّد أداة عادية، بل كان له مقامه الخاص، وُضع بعناية على رف الهاتف المجاور الذي لم يمِضِ وقتئذ على دخوله لبيتنا هو أيضًا سوى شهور قليلة، لم يكن أحد منا يجرؤ أن يلمسهما حتى لمجرد الفضول إلا الكبار، كانا في نظرنا امتدادًا لهيبة أبي، وحرمة لم يكن مسموحًا لأحد مهما كان أن يكسرها. بطارية الجهاز كانت مربعة تُستبدل عند الحاجة من بسطات شارع التلل بحلب، كل ذلك كان يبدو لنا كشباب صغار حدثًا جللاً يستحق التقدير والاحترام.

اقتناء جهاز تلفزيون ملوّن بجهاز تحكّم في بدايات الثمانيات لم يكن أمرًا مألوفًا في بلدتنا، خاصة وأنه وصلنا من دمشق، عن طريق ضابط كبير بالشرطة وكأننا نلنا فيه امتيازًا خاصًا لا يناله الجميع، كنا نُفاخر به بين أقربائنا.

---

7 سيرونكس (Syronics) : الشركة العربية السورية للصناعات الإلكترونية

رغم أنّ التلفزيون لم يكن يلقط سوى محطة أرضية واحدة عن طريق أنتيل هوائيّ مثبت على السطح. ومع ذلك، صار جهاز الريموت رمزًا للفارق الاجتماعي بيننا وبين غيرنا، رغم أن وظيفته بالنسبة لنا لا تتجاوز رفع الصوت أو خفضه.

كنا نخشى حتى مجرد التفكير في الإمساك بجهاز التحكم لان ذلك يستوجب العقوبة البالغة. حتى البالغون منّا كانوا يعرفون أن مسَّ الجهاز من الكبائر. والعقوبة يفرضها ربّ الأسرة كيف يشاء لكن بصرامة لا تقبل الجدل.

رغم انتشاره في السنوات الأخيرة من ثمانينات القرن الماضي، لم يفقد "الريموت كنترول" مكانته تمامًا. بل بقي يحتفظ بجزء كبير من هيبته، خاصة حينما كان يجلس رب الأسرة في صدر البيت، يمسك بالجهاز كمن يمسك قائد جيش عصاه، يتنقّل بين القنوات الإخبارية، يتلقى الأخبار السارّة كما تتلقّى الأرض أوّل قطرات المطر.

لكنّ تساؤلات عدة صارت تتبادر إلى الذهن تباعًا، إلى متى يبقى هذا العز والسطوة للريموت كنترول؟

هل يبقى هذا الجهاز الصغير سيّدا كما هو، خاصة وان تقنيات جديدة صارت تتقدّم عليه بسرعة فائقة؟

إلى متى تبقى هذه القطعة الصغيرة رمزًا للهيبة؟ هل يأتيها يوم وتغدو مجرّد أثرٍ منسيّ في متحف الذكريات؟

أعوام مرت وأجهزة تزايدت وتطورت، وها أجدني اليوم وسط ضجيج عالٍ من التقنيات.. شاشات مسطّحة تغزو جدران البيوت والمكاتب، آلاف

القنوات الفضائية تنهال علينا بلا توقف، هواتف ذكية وأجهزة لوحية تقتحم كل لحظة هدوء في حياتنا. لم يعد هناك وقت لمشاهدة كل شيء، ولا قدرة على الإحاطة بكل ما يُعرض.

للأسف مع كل هذا الطوفان، وهذا الضجيج، تلاشت قيمة الأشياء. وفقدت الأجهزة بمختلف استعمالاتها حصانتها، صارت مرمية على الأرض، تتبادلها أيدي الصغار أكثر من الكبار، تراها فوق طاولة الطعام بلا هيبة، غابت عنها صرامة الحفظ، ساء استخدامها من الأطفال وصار استبدالها بجديد أمرًا محتوما كل فترة.

ها هو التحكم الصوتي يوشك أن يزيح جهاز التحكم جانبًا، وها هي تطبيقات الهواتف تلوّح له بالإحلال، و ها هي أنظمة البيوت الذكية تستعد لتهميشه إلى الأبد.